- وأيضاً شكسبير؛ **الف ليلة وليلة** - وأيضاً بورخيس». لكلّ من هؤلاء صوته وهويّته، مهما وجد بينهم من قواسم مشتركة، «فالمتشابه ما هو بالهوية، والهوية ليست للمتشابه... إنّ خلاص الجميع، الخلاص الروحاني والأخلاقي، يمرّ عبر الهوية المميّزة لكلّ منها».

وفسيفساء من الحضارات الشرقية والغربية، القديمة والحديثة، تتداخل إنجازاتها الفكرية والثقافية والفنيّة وتتمازج، محتفظة كلّ منها بخصوصياتها ومميّزاتها.

وفسيفساء من الأنواع والموضوعات يتشكّل منها نسيج كلّ واحد من كتبه، إذ يضمّ أحدها -Le Nibbic- على سبيل المثال أربع عشرة مقالة تراوح بين «دائرية القول العربي» و«وصف مهاجر»، و«الملح الآخر»، و«بدر، في موته»، و«فلاح في إقطاعة»، و«مانديارغ»، و«موقع أدونيس» والمتوسط، إلخ...

وفسيفساء من الصور الأدبية المبنية على الطباق أو الإرداف والتي يضجّ بها شعره ونثره، على مثال «اللّهب الأسود» و«الصفاء المظلم» و«الغياب الحاضر» و«شمولية حضور العدم» و«المرتحل الباقي»، و«اللاأحد» و«اللامرأة» و«اللاموت»... واللائحة هنا لا تنتهي.

فسيفساء من كلمات وصور تغلي، تتدافع، تتنافر وتتجاور وتتصاحب لتشكّل مادة قول جديد يتّجه عكس التيّار مفتّشاً عن بابل حديثة تعود الألسن لا لتتبلبل، بل لتلتقي فيها وتتفاهم وتبني مجداً لكلمة، مجد الإنسان المنفتح على حضارته وعلى ثقافة الكون الفسيح، والعامل على إحلال الحوار نهجاً للتعامل والتفاهم بين الشعوب.

نعود إلى الليل:

«إن الجانب المظلم الكائن في اللّغة هو جزء الليل الكامن في الإنسان. شاعر هو ذاك الذي يحاول، بتلمس أعمى، أن يقرّب اللّيل من اللّيل وكأنّه يجمع بين تنفسين. عودة إذن إلى التنفّس العاشق، تناغم وتداخل النَفَسين ليصبحا، واحدهما والآخر، واحدهما في الآخر، نَفَساً وحيداً. ولكن عملية الشعر ليست سهلة، ولا هو بالسهل ذاك الميزان التنفّسي».

صلاح الفاسي!...

جواد صيداوي

قاس صلاح ستيتية في شعره الماسي.

قاسٌ على نفسه وقاس على قارئه.

إنه يتجنّب المعنى القريب، وإن كان ذا بُهرج ليذهب بنا، عميقاً، في رونق الليل، وفي أغوار النفس المظلمة - المضيئة، ليقبض، بعد العناء العذب، على الجوهر المشعّ ببراءة الطفولة وطهر الوجود.

إنها الأصالة بمرتقاها الصعب.

«إذا كنت تريد النور- يقول جلال الدين الرومي- فاجعلْ نفسك لائقة بالنور.»

وإذا كنت تريد الشعر، يقول صلاح ستيتية، فاسْمُ بنفسك إلى ملكوت الشعر.

لماذا هذا العناء كلُّه؟

ما جدوى هذا الألم المرصّع بالشبَق؟

وما جدوى تلك النشوة المسكونة بالموت؟

إغراء الخلود؟

هداية الروح إلى نور ذاتها؟

اختراق الحجب، جميع الحجب، بومضة إشراق واحدة؟

بلوغ الإنسان غير المرئي، الإنسان الكلّي، إنسان الروح؟

إنّها الغباوة بعينها. الغباوة القدسية الخلاّقة.

يقول المتنبّي: سبحان خالق نفسي كيف لذّتها

في ما النفوس تراه غاية الألم

إنّه السعي الأزلي، نفسه، إلى «أن نكون أو لا نكون»، السعي العنيد الجامح إلى ترياق الألم: الم المعاناة، والم الأرق.

«إنّ جميع الأساطير، إذا كانت عظيمة، جميلة، وراسخة في نظامها الكوكبي، إنّما تولد في الليل، فهي مواليد الأرق. فحين يكون النعاس قد ملأ بعلفه اسطبلات العالم وحظائره، يلمح ذلك الأرق، المجافيه النوم، نغماً خفيفاً يلوح كجرح في بلّور الوقت، ثم يعظم، يتقدّم حتى لحظة اللاتوازن المباغت، في قمّة الظلمة القائمة، وحتى الانفجار الرائع: هذا المطر من الدمع!».

يقول صلاح ستيتية في حديثه عن جورج شحادة: «هذا المطر من الدمع.. أيّ أرض سيوقظ؟ وأيّ الرغبات يلبّي؟»

الجواب نجده في آثار الشاعر. فلو نحن تعمّقنا تلك الآثار تعمّقاً دقيقاً لوجدنا ملامح التراث العربي - الإسلامي نابضة بزخمها، كلِّه، في شعره وفي نثره على حدّ سواء. وهذا ما أشار إليه نجم الدّين بامات في قوله: «.. وصلاح ستيتية بصفته رجلاً من حوض المتوسّط، نراه يستعين، في كتاباته، بكل موارد اللّغة، من الشرق ومن الغرب، في آونة واحدة. من الغرب تأتيه جميع مزايا الإبداع الكلاسيكي، باللّغة الفرنسيّة، والمتراكمة خلال قرون متعاقبة، مع القواعد الصلبة لتلك اللّغة. ومن الشرق، من اللّسان العربي القديم، تأتيه، عن وعي منه أو عن غير وعي، كنوز سرية الألوان، محفوظة بعناية فائقة، من الإبداع الكلاسيكي، والقواعد اللغوية التي لا تقلُّ صلابة عن تلك».

وبعد

هنيئاً لصلاح ستيتيه جائزة الفرنكفونية الكبرى

إنه لجميل أن ينال مبدع من مبدعينا مثل هذا التكريم الرفيع من الآخرين. ولكن الأجمل ألاّ يأتي تكريمنا نحن لمبدع من مبدعينا مجرّد صدى لتكريم الآخرين له.

أيّها الشاعر الصديق

لقد أتعبتنا، قبل خمس سنوات، يوم جئت تحدّثنا عن قرود الروح الذين يدنسون براءة الوجود وطهارته، وعن السعي الدؤوب والشاق لبلوغ جوهر الأشياء، وعن خبط أقدام الجند الزاحفين، تحت نصر، ليستلوا «الماء البارد المحروس»، ويأخذوه. لماذا لا تدعنا وشأننا؟. لماذا لا تدعنا في انخذالنا العذب؟. لماذا لا تدعنا نتسابق إلى كسب مرضاة الغاصب، غاصب الأرض والتاريخ، غاصب الماء البارد المحروس والماء الحارّ المباح في آنٍ معاً؟.

أيّها الشاعر الصديق

وإنّنا لفرحون، اليوم، بما تحمل إلينا من تعب جديد يوقظ، في أعماقنا، هذا السبات الكئيب. فالشعر ثورة أو لا يكون، وإننا الغاوون!..